والدليلُ الماديُّ القائم على بُطلان نظرةِ ابن رُضْوان: أنّك ترى آلافَ التراجمِ والسِّيَرِ على اختلافِ الأزمانِ ومرِّ الأعصار وتنوُّع المعارف، مشحونةً بتسميةِ الشيوخِ والتلاميذِ ومستقلٌّ من ذلك ومستكثِرٌ، وانظر شذرةً من المكثرين عن الشيوخِ حتى بلغ بعضُهم الألوفَ كما في «العُزَّاب» من «الإسفار» لراقمهِ.

وكان أبو حَيّان محمد يوسُف الأندلُسي (م سنة ٧٤٥هـ)[١] إذا ذُكر

---

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغُنية» للقاضي عِياض (ص١٦ ـ ١٧).

عنده ابنُ مالك؛ يقول: «أين شيوخُهُ؟».

«وقال الوليد[1]:

كان الأوزاعيُّ يقول: كان هذا العلمُ كريماً يتلاقاه الرجالُ بينَهم، فلمّا دَخَلَ في الكُتُبِ؛ دخل فيه غيرُ أهلِه.

وروى مثلَها ابنُ المبارك عن الأوزاعيِّ.

ولا ريبَ أنَّ الأَخْذَ من الصُّحُفِ وبالإجازةِ يقعُ فيه خَلَلٌ، ولا سيّما في ذلك العَصْر، حيثُ لم يكن بَعْدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ، فتتصحَّف الكلمةُ بما يُحيل المعنى، ولا يَقَعُ مثلُ ذلك في الأخذِ من أفواه الرجال، وكذلك التحديثُ من الخفظِ يَقَعُ فيه الوَهَم؛ بخلافِ الرواية من كتاب محرَّرٍ» اهـ.

ولابنِ خَلدون مبحثٌ نفيسٌ في هذا؛ كما في «المُقَدِّمة»[2] له.

ولبعضِهم:

مَنْ لم يُشافِهْ عالماً بأُصولِه
فيقينُهُ في المُشكلات ظُنونُ

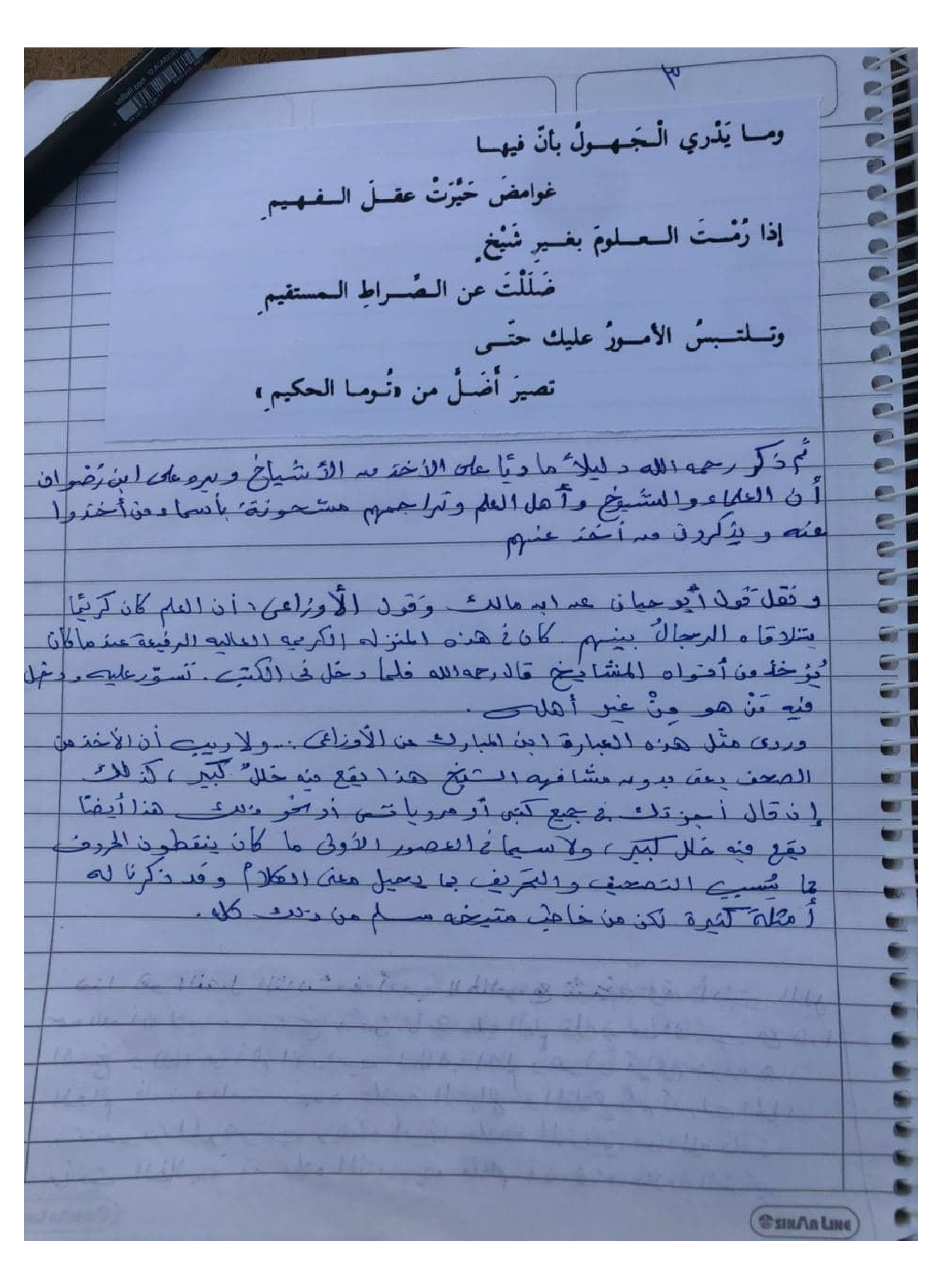
وكان أبو حَيَّان كثيراً ما يُنْشِدُ:

يَظُنُّ الغُمْرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدي
أخا فَهْمٍ لإدراكِ العُلومِ

---

(١) «السير» (٧ / ١١٤).

(٢) (٤ / ١٢٤٥).



وما يَدْري الْجَهولُ بأنّ فيها
غوامضَ حَيَّرتْ عقلَ الفهيمِ
إذا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شيخٍ
ضَلَلْتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ
وتلتبسُ الأمورُ عليك حتّى
تصيرَ أضلَّ من «توما الحكيمِ»

ثم ذكر رحمه الله دليلاً ماديًا على الأخذ من الأشياخ ويرد على ابن رضوان أن العلماء والشيوخ وأهل العلم وتراجمهم مشحونة بأسماء من أخذوا عنه ويذكرون من أخذ عنهم

ونقل قول أبو حيان عن ابن مالك وقول الأوزاعي: أن العلم كان كريمًا يتلاقاه الرجال بينهم. كان في هذه المنزلة الكريمة العالية الرفيعة عندما كان يُؤخذ من أفواه المشايخ قال رحمه الله فلما دخل في الكتب. تسوّر عليه ودخل فيه مَن هو مِنْ غير أهله.

وروى مثل هذه العبارة ابن المبارك عن الأوزاعي... ولا ريب أن الأخذ من الصحف بحق بدون مشافهة الشيخ هذا يقع فيه خلل كبير، كذلك إن قال أجزتك في جميع كتبي أو مروياتي أو نحو ذلك هذا أيضًا يقع فيه خلل كبير، ولا سيما في العصور الأولى ما كان ينقطون الحروف مما يسبب التصحيف والتحريف بما يحيل معنى الكلام وقد ذكرنا له أمثلة كثيرة لكن من خاطب متيقظه سلم من ذلك كله.

الفصل الثالث

أَدَبُ الطَّالِبِ مَعَ شَيْخِه

١٨ - رعايةُ حُرْمَةِ الشَّيْخِ :

بما أنَّ العلمَ لا يُؤخذ ابتداءً من الكُتُب بل لا بُدَّ من شيخٍ تُتْقِنُ عليه مفاتيحَ الطَّلبِ؛ لِتَأْمَنَ من العَثارِ والزَّلَل؛ فعليك إذاً بالتحلِّي برعاية حُرْمَتِهِ؛ فإنَّ ذلك عنوانُ النجاحِ والفلاحِ والتحصيلِ والتوفيقِ، فَلْيَكُنْ شيخُكَ محلَّ إجلالٍ منك وإكرامٍ وتقديرٍ وتلطُّفٍ، فَخُذْ بمجامعِ الآدابِ مع شيخِكَ في جُلوسِك معه، والتحدُّثِ إليه، وحُسْن السؤال والاستماع، وحُسْن الأدب في تصفُّح الكتاب أمامَه ومع الكتاب، وتَرْكِ التطاولِ والمماراةِ أمامَه، وعَدَم التقدُّم عليه بكلامٍ أو مسيرٍ أو إكثارِ الكلام عندَه، أو مُداخَلَته في حديثِهِ ودَرْسِهِ بكلامٍ منك، أو الإلحاحِ عليه في جَوابٍ؛ مُتَجَنِّباً الإكثارَ من السؤال، لا سيّما مع شُهود الملإ، فإنَّ هذا يُوجِبُ لك الغُرورَ وله المَلَلَ.

ولا تُناديه باسمِه مُجَرَّداً، أو مع لَقَبه كقولِكَ: يا شيخُ فلان! بل قل: يا شيخي! أو يا شيخَنا! فلا تُسَمِّه؛ فإنَّه أرفعُ في الأدب، ولا تُخاطِبْه بتاء

هذا هو الفصل الثالث في أدب الطالب مع شيخه وقد أثبت بالدليل رحمه الله أنه لابد من شيخ متقن تأخذ عليه العلم فلابد من الأدب مع هذا الشيخ وهذا من أهم الآداب لطالب العلم وهو أن تراعي حرمة هذا العالم فإن فعلت فهذه علامة النجاح والفلاح بأنه تدرك المراد وتنجو من المرهوب وهذه أيضا علامة التوفيق من الله فإن رأيت الطالب قد علاه الأدب فاعلم أن هذه علامة التوفيق

فإنه حرمها فذلك المخذول.
قال ابن عثيمين لكي تستفيد من شيخك لابد أن تعتبره معلما مربيا والطالب إن لم يثق بشيخه في هذين الأمرين فلن يستفيد من شيخه الفائدة المرجوة

← (فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف) أي لابد ولزاما عليك أن يكون الشيخ محل الإجلال منك بمعنى وأن تكرم وترفع منزلته وتقدره حق قدره وأن تتلطف معه قولاً وفعلاً فلا تسبقه في سير ولا تتقدم عليه في دخول وخروج أو مجلس وأخذ وإعطاء ونحو ذلك مما يدل على التوقير والإحترام

← (خذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه) فاجلس بين يديه جلسة المتأدب الطالب للعلم
← (والتحدث إليه) إذا تحدثت إليه فتحدث حديث الطالب إلى معلمه
← (وحسن السؤال والاستماع) وهذا من الأمور المهمة أن للسؤال آداب ومنها إخلاص النية لله في هذا السؤال كما سأل الوفد النبي صلى الله عليه وسلم: مرنا بأمر نبلغه من بعدنا وندخل به الجنة. فيسأل السائل ليعمل ليدخل الجنة وأن يبلغ ويحمل ذلك العلم لغيره ولا شك أن الإخلاص في هذا الأمر له دور كبير فأنت تجد أن كثيرا من كتب العلم إنما هي جواب لسؤال سائل كالتدمرية والواسطية ونحو ذلك ولا شك أن الله يعطي هذا السائل ثوابا عظيما كلما قرئ هذا الكتاب لأنه كان سببا فيه.
← (وحسن الاستماع) فتنصت إليه إذا تكلم ولا تلتفت عنه فذلك سوء أدب، فإذا سأله قال أحسن الله إليكم ونحو ذلك
وكذلك حسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه وبتأدب أيضا مع كتاب العلم فلا يمتهنه ولا يكون سببا في تلفه وتمزيقه
← (وترك التطاول) أي عدم الترفع على الشيخ بعلم أو مال أو نحو ذلك
← (وترك المماراة أمامه) المماراة بمعنى أنه يسأل الشيخ فيجيبه ثم يرد على الشيخ فإذا كان كذا فيجيبه وهكذا
← (أو إكثار كلام عنده) فيكون عليه السكينة والوقار ولا يتكلم بما لا فائدة منه ويكثر الكلام

← ولأن من أخلاقه في حديثه ودرسه وكلامه فليس من الأدب مقاطعة المتكلم حتى يفرغ من كلامه فما بالك بالعالم إذا تكلم

← وكذلك لا تلح عليه في السؤال الجواب فإذا سألته فقال لا أتذكر فلا تلح عليه حتى يقول ما سؤالك.

← كذلك تجنب كثرة السؤال وقد يكون في غير موضع الدرس وقد تكون نيته غير صالحة فلا يستفيد ولا يفيد والعياذ بالله وقد تكون نيته إظهار نفسه أمام الناس فهذا أيضا من النوايا الفاسدة.

← ومن الأدب مع الشيخ ألا تناديه باسمه مجردا يا محمد ولا مع لقبه يا شيخ محمد بل الأدب أن تقول يا شيخي أو يا شيخنا فلا تسميه ولا تخاطبه بتاء الخطاب أنت أو قرأت ونحوه ولكن تقول: قلتا كذا وكذا أو مرة ذاكرتنا كذا في الدرس الماضي والمذاكرة

← ولا تناديه عن بعد من غير ضرورة فهذا ليس فيه تقدير واحترام للعلم.

الخطابِ، أو تُناديه من بُعْدٍ من غيرِ اضطرار.

وانْظُر ما ذَكَرَهُ اللَّهُ تعالى من الدلالةِ على الأَدَبِ مع مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ ﷺ في قولـه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً. . .﴾ الآية.

وكما لا يليقُ أن تقولَ لوالدِكَ ذي الأُبُوَّة الطينيَّة: «يا فلان» أو: «يا والدي فلان» فلا يَجْمُلُ بك مع شيخِك.

والتزِمْ توقيرَ المجلسِ، وإظهارَ السُّرورِ من الدرسِ والإفادةِ به.

وإذا بَدَا لك خَطَأٌ من الشيخِ، أو وَهَمٌ فلا يُسْقِطْه ذلك من عينك؛ فإنّه سببٌ لحرمانِك من عِلْمِهِ، ومن ذا الذي يَنْجُو من الخطأ سالماً؟

واحْذَر أن تُمارِسَ معه ما يُضْجِرُهُ، ومنه ما يُسَمِّيه المُوَلَّدُون: «حرب الأعصاب»(١)؛ بمعنى: امتحانِ الشيخِ على القُدرة العِلميّة والتحمُّل.

وقد أمر الله الصحابة الكرام بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخطاب فقال: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾.
أي لا تنادوه باسمه مجردًا كنداء بعضكم بعضًا.

وكما لا يليق أن تقول لوالدك من النسب وهو ذو الأبوة الطينية يا فلان
- أو يا والدي فلان فكذلك الشيخ لا يليق أن تناديه باسمه مجردًا أو باللقب مع الاسم كذلك

- وإظهار السرور من الدرس والإفادة منه فإن كل ذلك يسعد الشيخ ويزيد من انشراح صدره وإقباله على الإفادة وبالعكس كذلك

- وإذا بدا لك خطأ من الشيخ أو وهم فليس ذلك معناه أن تسقطه من عينك عن ذا الذي يسلم من الخطأ وإذا نبهت الشيخ فتلتزم الأدب وإما أن تكون على الملأ أو بينك وبينه على حسب ما تقتضيه المصلحة.

- واحذر أن تعامله بما يضجره فيمتحن الأستاذ ويعد له المسائل لو كان كذا لو كان كذا حتى يمله هذا كله خطأ وخروج عن العادة

- وإن بدا لك أن تنتقل إلى شيخ آخر لتلقي علم منه أمر باءه فتستأذن شيخك لأن عنده من العلم ما ليس عندك فينصحك في ذلك الأمر ويبين لك ما يرشدك، كذلك إذا أردت السفر مثلاً تستأذن منه حتى لا ينشغل قلبه أو يتهمك بالكسل مثلاً

- ومعرفة هذه الآداب إما أن يكون بطريق العقل أو بالطبع وكذلك بحضور مجالس العلم ومخالطة الطلبة والعلماء.

وإذا بدا لك الانتقالُ إلى شيخٍ آخرَ؛ فاستأذِنْهُ بذلك؛ فإنه أدعى لحُرمتِه، وأملكُ لقلبِهِ في محبّتك والعَطْفِ عليك. . .

إلى آخر جُملةٍ من الآدابِ يعرفُها بالطَّبع كلُّ مُوَفَّقٍ مُبارَكٍ وفاءً لحقّ

شيخك في «أبوّتِهِ الدّينيةِ»، أو ما تُسمّيه بعضُ القوانينِ باسم «الرّضاع الأدبي»[٢]، وتَسْمِيَةُ بعض العُلماء له «الأبوّة الدينيّة» أليقُ، وتركُه أنسبُ.

واعْلَم أنّه بقَدْرِ رعايةِ حُرمتِهِ يكونُ النجاحُ والفلاحُ، وبقدرِ الفَوْتِ يكونُ من علاماتِ الإخفاقِ.

تنبيهٌ مُهِمٌّ:

أُعيذكَ باللهِ من صَنيعِ الأعاجمِ، والطُّرُقيّةِ، والمبتدعة الخَلَفيّةِ؛ من الـخُضـوعِ الخـارجِ عن آدابِ الشـرعِ؛ مِن لَحْس الأيدي، وتَقْبيل الأكتاف، والقَبْض على اليمين باليمين والشمال عند السلام؛ كحالِ تودُّد الكبار للأطفـالِ، والانحنـاءِ عنـد السّـلام، واستعمـال الألفاظِ الرَّخْوةِ المُتخاذِلة: سيّدي، مولاي، ونحوِها من ألفاظ الخَدَم والعبيدِ.

وانْظُر ما يقولُـه العَلّامة السّلَفي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠هـ) رحمه الله تعالى في «البصائر»؛ فإنه فائقُ السِّياق[١].

وأعلم أخيرا أنه بقدر مراعاة ما ذكره الشيخ من آداب يكون النجاح والتوفيق، وبقدر ما يفوتك يكون الإخفاق والعياذ بالله

← ويحذر الشيخ رحمه الله تعالى في آخر كلامه عن الغلو في ذلك الأمر وتجاوز الوارد وتعدي السنة كما يصنع الأعاجم أو الطرق الصوفية أو كل مبتدع وذكر له أمثلة منها لحس اليد فهذا لا يجوز أما التقبيل قال ابن عثيمين لا بأس به ما لم يخرج إلى حد الإفراط والزيادة، وأما تقبيل الأكتاف ليس مذموما على كل حال إن كان قادما من سفر فلا بأس بذلك إلا إذا اقترن به انحناء

- قال الشيخ: .. والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام.

قال الشيخ ابن عثيمين هذا لا بأس فيه وقد جاء في حديث ابن مسعود

رضي الله عنه قال: علمني النبي صلى الله عليه وسلم التشهد وكفي بين كفيه
رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.
وهذا يدل على جواز أن يقبض الكف بين الكفين وإذا اعتاد الناس
ذلك عند السلام فلا حرج وهذا ليس فيه نهي، وهذا يدل على إظهار
الشفقة والإكرام، لا نرى أن في ذلك بأساً. بل الإنحناء عند السلام
هذا خلق ذميم ينهى عنه لورود النهي، انتهى كلام الشيخ العثيمين رحمه الله

← د واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي مولاي. قال الشيخ ابن
عثيمين هذه لا داعي لها

← وما أحال الشيخ بكر رحمه الله على كتاب البصائر، قال العثيمين لا أعرفه
وما طالعته، وهذا يدل على صراحة الشيخ وتواضعه رحمه الله عليهم
أجمعين. اللهم آمين